الهند بين الوحدة والتقسيم

الهند بلاد فسيحة تناهز فى مساحتها ثلث مساحة أوربا ، وتقارب فى عدد سكانها ٣٥٠ مليون أو نحو سدس العالم كله . ثم إنها بلاد عريقة فى المدنية ، لها حضارة قديمة وتراث مخلد فى التاريخ ؛ وبدونها لاتكتمل للشرق صورته المعروفة ؛ فقد مثلت ركناً هاما من أركانه فى الأعصر القديمة والوسيطة ، نبتت فيها بعض العقائد والديانات التى انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، وانتشرت بالبر والبحر ؛ كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التى نقلها الشرقيون فى غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهى إلى ذلك كله لا تزال تعتبر قلب الشرق الآسيوى حتى يومنا هذا ؛ احتك عن طريقها العالم الأوربى بالعالم الآسيوى ، احتكاكا تمثل فى التجارة والسياسة ، وفى الحرب والاستعمار ، ثم فى النهضة والكفاح . . . كل ذلك فى صور وأشكال تعاقبت على الزمن منذ عهد الاستكشافات حتى يومنا الحاضر . ولا تزال تلك الصور والأشكال تتجدد أمام أعيننا فى وقت يحاول فيه الغرب أن يصوغ علاقاته بالشرق فى قالب جديد ، ويحاول فيه الشرق أن يعيد بناء بيته ، وأن يرد إلى حياته بعض ما فقدت من استقلال .

ويحاول الباحثون الآن أن يتفهموا ما يجرى فى بلاد الهند من أحداث وتطورات فى الحياة القومية العامة والحياة السياسية بنوع خاص . ويختلف أولئك الباحثون ؛ فمن قائل إن العالم يتجه نحو التكتل ، وإن من الخير للهند وللعالم الشرقى أن تبقى تلك البلاد وحدة متماسكة لتكون نواة لقوة عالمية تحفظ التوازن فى جنوب قارة آسيا ، وتكون دعامة قوية من دعائم الاستقرار والتعادل فى صلات الشرق بالغرب . ومن قائل إن الوحدة فى الهند إذا لم تقم على أساس طبيعى وبشرى مكين فانها لن تكون خيراً مما حاول الانجليز فى عهد استعمارهم أن يفرضوه على سكان تلك البلاد من وحدة ظاهرية لا تمس جوهر الحياة ،

وخير منها أن تقسم الهند إلى أكثر من دولة واحدة ، وأن تأتلف من عدد من الدول المتوسطة ، يستند كل منها إلى كيان طبيعى وبشرى سليم موحد ، ويقوم ما بينها على صلات الجوار والمصالح المادية المتعادلة والمتداخلة ؛ فمثل تلك الدول الهندية المستقلة تكون أقدر على الحياة والكفاح ، وأدنى إلى القوة والتماسك القومى والعنصرى من دولة هندية كبرى تسودها الفوضى وتنخر فى عظامها مشاحنات الطوائف والطبقات ، واختلافات المذاهب والعقائد والأديان.

على أن أغلب أصحاب الرأيين فى الوحدة والتقسم إنما يطرقون الموضوع من ناحيته السياسية ؛ وهى ناحية لها خطرها الكبير ولا شك ؛ ويحاول بعضهم أن يربط بين ما يرمى إليه وبين ما كان للهند فى عهدها الأخير تحت حكم البريطانيين ؛ فيقول انصار الوحدة إن الهند إذا كانت قد حققت فى عهد الاحتلال والاستعمار وحدتها العامة فى رياسة الدولة وفى سياسة الأمن الداخلى والمواصلات وفى الجيش والدفاع والتجارة الخارجيه وغير ذلك فما أحراها أن تتابع ذلك فى عهد الاستقلال ، بعد أن تتلاشى سياسة فرق تسد ، وينزوى أنصارها من عملاء البريطانيين بين الهنود . ويقول أنصار التقسيم إن الهند ما كانت فى يوم من الأيام خلال تاريخها الطويل لتؤلف دولة واحدة موحدة ، وإن كانت قد قامت بها فى بعض الأعصر دول كبرى امتد سلطانها إلى معظم أرجاء شبه الجزيرة . كما يقولون أيضاً إن وجود البريطانيين لم يوحد البلاد إلا من أجل تسخيرها لصالح المستعمر فى التجارة والاستغلال وعن طريق الجيش الامبراطورى الذى تضرب به بريطانيا فى الهند نفسها إن أرادت وفى أقاصى الأرض متى بدرت حاجة إلى ذلك ؛ وما كانت تلك الوحدة التى فرضها البريطانيون على الهند لتمثل الوحدة السياسيه القومية بالمعنى المعروف ؛ فالولايات متفرقة ، والامارات المستقلة كثيره ، والطوائف تشجع على أن يناحر بعضها بعضاً ، والطبقات ييسر لبعضها فى أن يطغى على بعض ، والمصالح الشخصية والفردية يساوم أصحابها على حساب المصالح العامة ، والثقافة الهندية تنحى تنحية لتقوم مكانها ثقافة بريطانية لا تتصل بحياة الهنود الأصلية ولا تغذى تراثهم الروحى والعقلى إلا بما يخلق طبقة جديدة قليلة من المتعلمين الذين يرتفع بهم تعليمهم يفرق ما بينهم وبين الحياة الهندية الصميمة . فالوحدة التى يقال إن تقسيم الهند يعتبر تراجعاً عنها إنما هى وحدة زائفة لا تمس حياة الهند

القومية إلا فى القشور . وإذا كان للزيف أن يعيش فى عهد الاحتلال والاستعمار فقد آن لنور الاستقلال الصحيح أن يكشفه ويبدده ؛ وعندئذ يبدو ما تحته من حقائق راسخة ، تستلزم كلها أن يعترف الهنود بأن التقسيم إن كان شرًّا لا بد منه فهو خير من وحدة تحمل فى طياتها بذور الفرقة والشقاق ، بل هو الحل العملى الوحيد لما تواجهه الهند المستقلة من مشكلات .

ومع ذلك فليس هذا مجال المفاضلة بين الرأيين من الناحية السياسية الخالصة. وخير لنا أن نتعمق الأمور ، وأن نحاول أن نرجع ببعض الظاهرات السياسية فى حياة الهند القومية إلى منابتها الطبيعية فى البيئة ، وإلى أصولها الأولى فى التاريخ ؛ فذلك أدنى إلى أن يقربنا من تفهم تلك الظاهرات فى أوضاعها الصحيحة ، ومن الحكم عليها حكما يستند إلى طبيعة الأشياء ومنطق التاريخ أكثر مما يستند إلى الرأى السياسى الخالص الذى لا يبعد أن يأتى متأثراً بنزعة أو ميل أو عاطفة .

وأول ما يسترعى النظر فى بلاد الهند أنها شبه جزيرة تحدها سلسلة شاهقة من الجبال تكاد تحجز ما بينها وبين داخلية القارة إلا فى أبواب قليلة لا سيما من الجهة الشرقية الغربية . ولذلك فقد استطاعت الهند أن تحتفظ بطابعها الخاص وشخصيتها المميزة عما جاورها وتاخمها من أقطار آسيا الداخلية . وفوق ذلك فان شبه الجزيرة الهندية تقع فى وسط آسيا الجنوبية ، ويحدها المحيط الهندى من الجنوب والشرق والغرب ، ولا يوجد فى جنوبها من اليابس غير جزيرة سيلان ؛ وهى بذلك تختلف اختلافاً ظاهراً عن شبهى الجزيرة الأخريين اللتين تمتدان من آسيا وهما شبه جزيرة الهند الصينية والملايو وشبه جزيرة العرب . فالأولى تمتد نحو الجنوب الشرقى وتنتهى إلى عدد كبير من الجزر فى اندونيزيا وما وراءها إلى استراليا وعالم الاقيانوس الهادى . والثانية تمتد نحو الجنوب الغربى وتتصل بافريقية الشمالية من جهة ، كما تكاد تلامس إفريقية الشرقية من جهة أخرى . ولذلك فان شبهى جزيرة الهند الصينية والعرب لم تمثلا منطقتين مغلقتين بالنسبة للهجرات القديمة ؛ وإنما كانتا معبراً وحلقة اتصال بين آسيا والعالم الخارجى ؛ بمعنى أن الهجرات المتتابعة التى اندفعت من آسيا إلى إحدى هاتين المنطقتين فى جنوبها الشرقى وجنوبها الغربى استطاعت أن تتابع سيرها نحو الخارج ؛ وكلما وصلت موجة جديدة من السكان دفعت ما سبقها من الموجات القديمة أمامها حتى

لايبقى منها إلا قلة ضئيلة لاتلبث أن تندمج فى الموجة الجديدة من السكان ، أو حتى تخرج الموجة القديمة برمتها من شبه الجزيرة وتخلى السبيل لما يأتى وراءها من موجات . وهكذا لاحظنا أن بعض العناصر السوداء القديمة قد هاجرت من جنوب شرق آسيا إلى الاقيانوس واستراليا أمام ضغط عناصر أحدث منها ؛ كما هاجرت بعض عناصر الملايو أمام ضغط الصينيين من الشمال فى العهد الحديث . وكذلك مرت موجات متتابعة من السلالات القديمة ثم الحامية والسامية عابرة الجزيرة العربية إلى أفريقية الشرقية والشمالية . وذلك كله بخلاف بلاد الهند التى كانت تمثل منطقة مقفلة إلى حد كبير ، « تراكمت » فيها العناصر لأنها لم تجد لنفسها مخرجاً تسير إليه إذا ما تدافعت موجات الهجرة بعضها فى إثر بعض . وقد ترتب على ذلك أن بقيت السلالات القديمة فى الهند إلى جانب السلالات الحديثة ؛ ولم تستطع تلك السلالات القديمة المستضعفة أن تغادر الهند إلى ما وراءها لأنه لا يوجد وراء الهند وسيلان غير عرض البحار ؛ وكل ما حدث أن انزوت أقدم العناصر وأضعفها فى الجهات البعيدة وغير الصالحة لا سيما عند طرف الهند الجنوبى ، أو انتقلت إلى جزيرة سيلان ، وهى عناصر بعضها أسود أو متأثر بسلالة شبه زنجية قديمة ، وتعرف بعض قبائلها بالفدّا . وإلى الشمال من هؤلاء يوجد الدرافيديون ، وهم سلالة مختلطة أثرت فيها سلالة البحر الأبيض المتوسط أو أحد أفرعها القديمة التى اختلطت فى الهند بعناصر قديمة أيضاً . ويقال إن الدرافيديين وصلوا إلى قلب الهند فى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد وإن كانت بعض العناصر التى تشبههم قد بلغت شمال الهند قبل ذلك ، ولم تكن موجة الدرافيديين أول الموجات ولا آخراها بالطبع ؛ وإنما سبقتها وتلتها موجات أخرى ؛ وكانت أهم الموجات اللاحقة تلك الموجة الآرية ؛ وأصحابها من الشقر أو ذوى البشرة البيضاء ؛ وهم قد أتوا من سهول آسيا ، وربما كانت لهم أو لبعضهم صلة بسلالات أوربا الشمالية . وقد كان دخول الآريين الأول إلى شمال الهند الغربى حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، واستقروا فى شمال الهند الغربى ، وهاجرت بعض طلائعهم نحو داخلية الهند الشمالية ، واختلطوا بغيرهم من السلالات القديمة بعض الاختلاط ، وإن كانوا قد فضلوا فى بعض الأحيان الاحتفاظ بدمائهم شبه نقية ، والترفع بأنفسهم من الناحية الاجتماعية ، فمثلوا طبقة عليا فى نظام الهند الاجتماعى . وقد تلت الآريين موجات آخرى أسيوية أيضاً

أتت على الأخص من شمال الهند الغربى ، أى من جهة أفغانستان وتركستان ؛ كما تسربت بعض عناصر المغول إلى الهند من شمالها الشرقى وأثرت فى منطقة أسام وبنغال إلى جانب تسرب بعض المغول والأتراك عن طريق وسط آسيا إلى شمال الهند الغربى ثم شمالها الأوسط إبان القرون الوسطى ، كما هو معروف .

وبالاضافة إلى كل هذه الهجرات دخلت الهند بعض العناصر بالبحر ، وعلى الخصوص بعض الملايو الذين استقروا على السواحل الجنوبية ، وبعض الفرس الذين استقروا على السواحل الغربية ، وبعض عناصر بحر العرب من التجار المختلطين الذين استقروا فى موانى الهند التجارية على السواحل الغربية وبعض السواحل الشمالية والشرقية لشبه الجزيرة .

وقد اتسعت الهند لكل هذه الموجات والهجرات ، ولم يخرج منها إلا عناصر قليلة اتجهت نحو برما أو بعض جزر المحيط الهندى وخلجانه ، أو نحو الملايو والهند الصينية ، ولكنها كانت عناصر قليلة نسبيا ، وكان بعضها من غير الهنود الأصليين أو من العناصر المختلطة التى حملت معها طابعاً من الحضارة الهندية نشرته فى أقصى شرق آسيا . فالهند فى الحقيقة قد قضى موقعها الجغرافى وبعدها عن اليابس فى خارج آسيا أن تصبح إلى حد كبير « محطة نهائية » و « طريقاً مغلقة » تجمعت فيها عناصر السكان والسلالات منذ أقدم الأعصر ، فطغى بعضها على بعض ، واستضعف بعضها بعضاً . ولم يكن أمام الضعيف فى بلاد الهند إلا أن يخضع للقوى ؛ فالهجرة سبيلها مغلقة والخضوع لا مفر منه . وكان ذلك كله فيما يبدو أساساً لما عرف فى بلاد الهند من نظام الطبقات ؛ ذلك الذى يتمثل فى صورة أكثر وضوحاً عند الأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة ، ولو أن بعض الباحثين يرى أنه قد بدأ فى الوسط أو فى الشمال . وهو نظام قضت به طبيعة الهند وظروفها الجغرافية ، كما قضى به تتابع الهجرات وطغيان السلالات بعضها على بعض منذ بضعة آلاف من السنين . وبذلك كله صارت الهند « متحفاً » أو « مخزناً » للسلالات ، ومتحفاً أيضاً للنظم الاجتماعية التى لا يداخل بعضها بعضاً ، ولا تقوم فيها العلاقة بين الطبقات على أساس رأسى ، بحيث يستطيع الفرد أو الجماعة من السكان أن ترقى من أسفل السلّم الاجتماعى إلى أعلاه ؛ وإنما هى طبقات أفقية بعضها فوق بعض ، يضغط أعلاها على أسفلها ، ولا يجد أسفلها سبيلا إلى تنسم الحياة كما يفعل من بأعلاه من الطبقات .

وهكذا انتهى العمران البشرى فى الهند بأن « تجمدت » فيه النظم ، وقام المجتمع على أساس الغالب والمغلوب ، والسيد والمسود ، والطاهر والمنبوذ . وليس هذا كله مما ييسر اختلاط السلالات وما يتبعه من اختلاط الثقافات وامتزاجها ، وتوحيد الفكر والروح بين عناصر المجتمع . فامتدت الفوضى إلى ميدان الثقافة والدين ، وتكاثرت فى الهند ألوانهما إلى حد بعيد لا يكاد يتصوره عقل ؛ فهناك من العقائد والأديان ألوان شتى ، وهناك من الآلهة التى تقدس بدرجات متفاوتة و إن لم تعبد كلها ، ما يكاد يساوى عدد الأنفس فى بلاد الهند؛ إذ يقدر بعض الباحثين تلك الآلهة بنحو ٣٣٠ مليون ، وهو رقم لا يكاد يصدق . وهناك من اللغات واللهجات نحو مائة وخمسين أو تزيد ؛ واذا كانت اللغة الأردية هى الغالبة فى شمال الهند ، فان جنوب الهند يصعب التفاهم فيه بلغة مشتركة غير اللغة الانجليزية ، التى يتعلمها من يريد أن يفهمه أكبر عدد من الناس[1] . وما اختلافات العقائد والثقافات الروحية والفكرية واللغوية والأدبية إلا صورة منعكسة من حياة الهند المعقدة ، والتى يطغى فيها التشعب على التوحيد والتفرقة على الوحدة . ولعل هذا كله أن يكون أساس ما تعانيه الهند من انقسام يمس الحياة القومية فى الصميم ، ولا يمكن إرجاعه كله إلى مجرد أن يكون الاستعمار قد سار على سياسة فرق تسد ، إلا إذا تغاضينا عن الأسس والأصول واكتفينا بالنظر إلى المظاهر والسطحيات .

ومن الطريف أن الهند تختلف من هذه الناحية اختلافاً أساسيا وخطيراً عن بلد كالصين ، حيث السكان أكثر عدداً ، ولكنهم أقوى تماسكاً فى السلالة والثقافة ؛ فكلهم من السلالة المغولية أو العناصر المتأثرة بها ، وكلهم يشاركون فى قدر مشترك من الثقافة ، فتستطيع كثرتهم مثلا أن تقرأ جريدة واحدة و إن اختلفت لهجاتهم من إقليم إلى إقليم ؛ ولا تكاد توجد بينهم طائفية دينية من ذلك

---

(١) تعتبر اللغة الانجليزية لغة التفاهم العام Lingua franca فى جنوب الهند . والطريف أن دخول هذه اللغة زاد من حدة التفاوت بين الطبقات فى هذا الاقليم . فليس من الميسور تعلمها وإجادتها إلا لأبناء طبقة البراهمان الذين يزيدهم التعليم مقدرة على احتكار وظائف الحكومة وأعمال التجارة وغيرها ، مما يمكن لهم من زيادة التحكم فى الطبقات الدنيا من الشعب . وهكذا زاد التعليم الحديث فى جنوب الهند مدى التفاوت بين الطبقات ، ووضع سلاحاً جديداً فى يد أبناء الطبقات العليا .

النوع الذى يمزق روح الوحدة فى الهند تمزيقاً ؛ وتاريخهم كان على الجملة تاريخ أمة واحدة منذ توحدت إمبراطوريتهم فى القرن الثالث قبل الميلاد . و إذا كانت قد حلت بعض فترات انقطع فيها حبل الوحدة وانقسمت الصين قسمين شمالى وجنوبى ، فقد انتهت تلك الفترات بعودة الوحدة من جديد (١) .

ولكن التفرقة التى تغلغلت فى حياة الهند القومية ترجع إلى عوامل أخرى قد لا تقل عمقاً وقوة عن عوامل الجنس والثقافة والتاريخ ؛ تلك عوامل البيئة الجغرافية ذاتها ، وما اصطلح الجغرافيون على أن يسموه بالتوجيه الجغرافى الاقليمى . فالهند بلاد فسيحة تناهز مساحتها مليونى ميل مربع ؛ وهى إلى ذلك مقسمة بحكم تكوينها الطبيعى إلى عدة أقاليم ، لكل منها مميزاته الطبيعية الظاهرة ، ولا يكاد يجمع بينها إلا أن مناخها من النوع الموسمى الحار ؛ ومع ذلك تتفاوت فيها أنواع ذلك المناخ ؛ فبعض جهات الهند ، كالركن الشمالى الشرقى مثلا ، يسقط بها من الأمطار مالا يسقط فى غيرها من جهات الأرض ، وبعضها الآخر ، كصحراء ثار ، شديد الجفاف قد حرمته الطبيعة نعمة الغيث وما يترتب عليه من حياة . ثم إن الهند يمكن تقسيمها إلى عدد من الأقاليم ذات التوجيه الجغرافى المستقل ، بحيث يصعب الجمع بينها وتوحيدها على أساس جغرافى طبيعى . فالسهل الشمالى مثلا قد تتفق كل أرجائه فى أنها مناطق منخفضة نسبيا ، تحدها الجبال الشاهقة من الشمال ، والجبال المتوسطة الارتفاع والبحار من الجنوب ، ولكن نهر السند يتجه بحوضه نحو بحر العرب ونحو الجنوب الغربى ، على حين يتجه الجنج بحوضه نحو الشرق وخليج بنغالة ، وتفصل بين الحوضين منطقة متوسطة الارتفاع ، اضطر البريطانيون قبل الحرب العالمية الأولى أن ينقلوا إليها عاصمة الهند ليقيموها فى دلهى بدلا من كلكتا ؛ ومع ذلك فقد بقيت دلهى الجديدة عاصمة عسكرية مصطنعة ، ولم تحل محل كلكتا كعاصمة قومية لاقليم الجنج الأدنى ، ولا محل لاهور وكراتشى كعاصمتين للسند الأعلى والأدنى . وفوق ذلك فان حوض السند يتصل فى مشكلاته وتاريخه بأفغانستان وما وراءها من داخلية آسيا

(١) من الطريف أيضاً أن نقارن هنا بين المسلمين فى كل من الصين والهند . فهم فى الصين جزء لا يتجزأ من الشعب الصينى ، رغم أنهم يتجمعون فى ولايات معينة كولاية يونان فى الجنوب الغربى . أما فى الهند فالمسلمون بقوا على الزمن يمثلون جماعة قائمة بذاتها ، لها كيانها المستقل كما هو معروف .

الرعوية بل وببعض جهات آسيا الغربية ذات الحضارة العريقة ، على حين ينزوى الجنج الأدنى فى أقصى الهند الشمالية ، ولا تهدد الأخطار حدوده الشمالية الشرقية كما تهدد حدود السند الشمالية الغربية . ولقد تطور السند وحوضه وحضارته فى احتكاك دائم مع رعاة آسيا ، واحتك فى تاريخه الطويل بمدنيات غرب القارة فى الأعصر القديمة وبعض العهد الحديث ، على حين لم يحتك الجنج الادنى بما وراءه فى الصين إلا احتكاكاً محدوداً ، وبقى على حالته الفطرية حتى انتقلت إليه الحضارة بالتوسع والفتح من السند فى فترات متأخرة نسبيا من التاريخ . ولذلك كله فقد كان من الصعب دواماً أن نوحد بين سهلى هذين النهرين وحوضيهما ، وأن نوجههما وجهة واحدة ؛ لأن الطبيعة مهدت لأحدهما أن يتجه نحو الغرب والجنوب الغربى ، وأجرت مياه الآخر لتتجه نحو الشرق والجنوب الشرقى . وكذلك الحال فى الهند شبه الجزرية جنوب سهل الهند والجنج ، فقد قطعتها التضاريس إلى أقاليم منعزل بعضها من بعض ، فهناك أولا جبال فنديا بين سهل الجنج وهضبة الدكن ، وهى جبال تقل فيها المسالك والممرات وتقل فيها الحيضان والمناطق الصالحة للاستقرار ؛ ولذلك فقد بقيت على الدوام منطقة عزلة ، انزوت إليها بعض العناصر المستضعفة من سكان الهند ، ولم تتوغل المدنية أو المدنيات المتعاقبة إلى قلب هذه المنطقة التى كانت ولا تزال منطقة صعوبة ، ولا تزال تقطنها حتى الآن بعض القبائل التى تقرب فى معيشتها وأحوالها من الفطرة . وفى جنوب تلك الجبال تمتد هضبة الدكن ، وتحصرها من الغرب وتقطعها عن البحر جبال الغات الغربية ، كما تحدها من الشمال الشرقى مرتفعات الغات الشرقية . وتكاد الدكن تكون عالماً قائماً بذاته ، قد لا يشق فيه الاتصال الداخلى ولكن يصعب اتصاله بالخارج وبما حوله من أقاليم الهند شبه الجزرية . ثم إن ساحل الهند الغربى تقوم الجبال العالية خلفه مباشرة ، فتوجهه وتوجه سكانه ناحية البحر ، وتربط حياتهم بمياهه بدلا من أن تربطها بداخلية الهند . وكثير من سكان الساحل أتوا بالبحر كما ذكرنا واستقروا فى موانيه ؛ ومع ذلك لم ترتبط الحياة بين هؤلاء السكان على طول ذلك الساحل الذى تستقل مرافئه بعضها عن بعض ويضيق السهل الساحلى فيه جداً ويتقطع . كما أن سكان القسم الجنوبى من الساحل (الملابار) كانوا يختلفون عن سكان وسطه وشماله . أما ساحل الهند الجنوبية

الشرقية (أو ساحل كروماندل) فقد كانت له ظروف جغرافية مختلفة : فأمطاره دائمة فى الصيف والشتاء ، وحياة أهله مرتبطة بخليج بنغالة وما وراءه، واتجاهه يغاير اتجاه ساحل ملابار ، ولا يكاد أهله يرتبطون بسكان الجهات الداخلية المنزوية فى أقصى أطراف الهند من الجنوب بأكثر مما ترتبط عناصر الملابار ذات النشاط البحرى العظيم بأهل الداخل من العناصر القديمة المستضعفة .

تلك أقاليم الهند أو أقسامها الكبرى من حيث التوجيه الجغرافى . وهناك أقاليم أخرى كثيرة ذات توجيه محلى خالص ، أو ترتبط بخارج الهند أكثر مما ترتبط بداخلها ، كما هى الحال فى منطقة نيبال على سفوح الهالايا وأطرافها وهى تكاد تستقل بذاتها وظروفها عن سهل الجنج الواقع إلى جنوبها ؛ وكما هى الحال عند حدود الهند الشمالية الغربية وهى تتصل بأفغانستان وبعض جهات التبت بمثل ماتتصل بالهند الشمالية . ولكننا نستطيع مما عرضنا له من التكوين الجغرافى لبلاد الهند أن نخرج بأنها بلاد قطعتها الطبيعة إلى مناطق لايكاد يربط بينها جميعاً إلا الموقع الجغرافى العام كشبه جزيرة تقع فى جنوب القارة والسلاسل الجبلية ، ولا مخرج منه لمن دخل إليه إلا أن يكون طموحاً جدا ومن سكان السواحل الذين ترتبط حياتهم بالبحار .ولذلك كله فان الطبيعة ، وقد جمعت فى الهند أشتاتاً من الخلق منذ الأعصر الأولى ، ومهدت لهذه الأشتات من الخيرات والنعم داخل شبه الجزيرة ما يقيم الحياة والحضارة والمدنية وييسر نشأة الثقافة والفكر ، لا سيما فى سهول الهند الشمالية، حيث قامت مدنيات ونشأت فلسفات قديمة قدم التاريخ ، بل تكاد تضارع فى قدمها ماهو معروف من جهات أخرى من غرب آسيا وشرقها ، فان هذه الطبيعة ذاتها لم تمهد السبيل لأن تختلط تلك الأشتات وتمتزج بالدم والروح امتزاجاً تاما كما حدث فى أقطار آسيا الشرقية والغربية ؛ وإنما بقيت لكل منها شخصيته المميزة ، كما أن الأقاليم التى استقرت فيها تلك العناصر لم يؤلف بينها توجيه جغرافى مشترك ولا متقارب ، وإنما فرقت بينها التوجيهات ، وكادت الوحدة تستحيل ولو أرادها الانسان .

من ذلك كله نستطيع أن نخرج بأن الأمر فى الهند أعمق كثيراً من أن يكون أمر « سياسة » أو فكر سياسى ، وأعقد كثيراً من أن يكتفى فيه بأن نتحدث عن الاستعمار والاحتلال وما أديا إليه من انحلال فى الحياة

السياسية وتأخير للنضج القومى وتخدير للوعى العام . . . بل إنه ليس غريباً أن يكون الفكر السياسى فى الهند صورة منعكسة من الطبيعة ؛ فالشعور الداخلى بالتنافر بين الطبقات من جهة ، والتناحر بين طوائف الأديان والعقائد من جهة ثانية ، ثم الاختلاف الظاهر بين مصالح الأمراء والحاكمين وبين اتجاهات ذوى الفكر الحديث فى الحكم والسياسة من جهة ثالثة ، كل هذه ترجع إلى أسباب أقوى كثيراً وأعمق كثيراً مما يتصور بعض من لايتعمقون الأمور ويكتفون بالنظر إلى السطحيات . والعلة فى بلاد الهند ليست داء يمكن أن يعالج بالآراء والنظريات توخذ عن تجارب بلاد أخرى فى أوربا أو حتى فى جهات آسيا الشرقية أو الغربية ، وإنما هى علة تتصل بالبيئة الجغرافية الهندية ، كما تتصل بتاريخ العمران الجنسى والتطور الثقافى والفكرى والاجتماعى العام فى بلاد الهند . ولا يجوز لنا أن نطبق هنا مانطبقه على نشأة الأمم الحديثة فى خارج الهند ؛ فنقول إن الهند مصيرها إلى الوحدة الاجتماعية والقومية كما كان مصير بعض الأمم الحديثة فى أوربا كألمانيا على سبيل المثال ، حيث تفرقت الآراء الدينية وتضاربت العقيدتان الكاثوليكية والبرتستانتية ، ثم انتهت الفرقة إلى الوحدة السياسية والقومية آخر الأمر ؛ فالقياس هنا مع الفارق الكبير ؛ إذ الهند فى مساحتها تضارع ثلث قارة أوربا برمتها كما ذكرنا فى صدر هذا المقال . ونحن إن قارناها بغيرها فينبغى أن نقارنها بمجموعة من الدول والأمم الواقعة فى قلب أوربا وفى جنوبها الشرقى لا بأمة واحدة . ثم إن الهند بسكانها تزيد على ثلاثة أرباع سكان القارة الأوربية ؛ وهى بدياناتها وعقائدها ولغاتها وألوان الثقافة والفكر فيها متحف لا نظير له فى بقاع الأرض . ولئن نظرت الهند إلى تاريخها السابق تستوحيه ما يعينها على الاتجاه نحو الوحدة فهى لن تجد فى ذلك التاريخ مثل ما وجد غيرها من أمم الشرق التى نظرت إلى الماضى فبعث فيها روح الوحدة والتماسك. وهى إن نظرت إلى أوربا تحتذيها فلن تجد ماتقيس عليه أو تنقل عنه اللهم إلا إذا رأت أن تسبق إلى ماتسبق إليه أوربا فتأتلف من عدد من « الأمم الهندية المتحدة » ، وهى خطوة صائبة وسديدة ولاشك ، ولكنها تكون أقرب إلى الطفرة منها إلى التدرج الطبيعى فى حياة بلاد تغلغلت فيها التفرقة حتى مست أسس الحياة وقواعدها الأولى .

ليس ينفع إخواننا الهنود إذن أن يندفعوا وراء الرأى السياسى الخالص، فينسبوا كل ما فى مجتمعهم من عيوب إلى فعل المستعمرين وسياستهم فى التفرقة والتشتيت ، وتشجيع التنابذ والتناحر . فعيوب المجتمع الهندى من هذه الناحية تبدو فى ضوء الدراسة الهادئة عيوباً أصيلة تتصل بالبيئة من جهة ، وبحياة السكان وحضارتهم وتاريخهم من جهة أخرى . وغاية ما هناك أن الانجليز وجدوا فى الهند مجالا واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، ومرتعاً خصيباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ؛ وكانوا فى ذلك مستعمرين بارعين جعلوا من الهند درة التاج البريطانى الامبراطورى ! وإذا كان هذا صحيحاً — وهو ماتهدينا إليه الدراسة التى تجتنب العاطفة والميل — فلن يكفى لتحقيق الوحدة فى الهند أن يخرج منها الانجليز وأن يجتث منها أذناب الاستعمار ، وإن كان خروج هؤلاء المستعمرين وقطع السبيل على أذنابهم أمراً ضروريا لوقف الداء عند الحد الذى وصل إليه . وخير للهنود أن يدركوا هذه الحقيقة الواقعة ، وأن يكونوا عمليين ، فلا تأخذهم العاطفة ، ولا يثنيهم الاندفاع السياسى عن دراسة بيئتهم ومجتمعهم ، ليخرجوا من هذه الدراسة بما ينير السبيل أمامهم ، ويعينهم على رسم الخطة العملية التى تناسب تلك البيئة ، وتتمشى مع تاريخ ذلك المجتمع . وهى خطة يخشى الذين يدرسون الهند دراسة هادئة أنها لن تحقق للمتحمسين للوحدة الشاملة آمالهم العريضة وغاياتهم العاجلة ؛ ولكنها مع ذلك ستمهد السبيل تدريجيا إلى نوع من الاتحاد بين مجموعة صغيرة من الأمم الهندية المتحدة . . . ومن يدرى ! فقد تكون تلك سبيل الهند الطبيعية للخروج من مأزقها الشديد الذى ساقتها إليه الأقدار . . . تلك التى جمعت إلى البيئة المعقدة ، تاريخاً قديماً حافلا بالتفرقة ، وتاريخاً وسيطاً مخضباً بالدماء ، ثم تاريخاً حديثاً قائماً على استغلال العيوب المتأصلة والضعف القائم استغلالا ما كانت الهند لتستحقه ، وهى بلد المدنية العريقة ، ولؤلؤة الشرق فى التراث الفلسفى والثقافى العام !

ولنا عود لهذا الموضوع فى مقال قادم عن دولة باكستان .

سليمان حزين